تقديم

الحمدُ للهِ وكفى، والصلاةُ والسلامُ على عبادِه الذينَ اصطفى.

وبعد،،

فـ«السحابُ الأحمرُ»، واحدٌ من كتبٍ ثلاثةٍ أَلَّفَها «مصطفى صادق الرافعي» في «رسائل الحب» ومعاناتهِ مع محبوبته الأديبة الآنسة «مي زيادة» وهذه الكتب هي «أوراق الورد» و«رسائل الأحزان»، والكتابُ الذي بين يديك.

وقد كفانا الأديب الكبير «محمد سعيد العريان» الحديث عن الكتاب في تصديرهِ لهُ، والذي عثرنا عليه في بعض الطبعاتِ القديمة، وقد خَلتْ الطبعات الحديثة من هذا التصدير الفذ مِمَّا يجعلُ لطبعتنا تميزًا يُرْضِي أدَبَ القارئ وثقافته، لا سيما وأن الأستاذ «العريان» تلميذ نجيب وصديق حميم للرافعي.

أمَّا المؤلف فهو العلَمُ العملاق أديب العربية في عصره «مصطفى صادق الرافعي» الذي كتب عنه الكثير وأثنوْا على تراثِه، حتى الذين لم يوافقوهُ في بعض كتاباته أَقَرُّوا له بالفضل والتأثير في مسيرة الأدب الحديث.

يقول الدكتور «مصطفى الجوزو»:

«إن الرافعي - رغم ما عليه من مآخذ - إلا أنه فتح البابَ أمام الأدباء لاسيما في أدب الرسائل، وكان من بين من تأثرَ بهِ «زكي مبارك» وغيره من الكتّاب».

ويُعْلِي الأستاذ الكبير «محمد عبد الغني حسن» من شأن ما كتبه الرافعي في «السحاب الأحمر» و«أوراق الورد» و«رسائل الأحزان» كواحد من عمالقة الأسلوب في رسائله التي عبرت عن مشاعره الإنسانية تجاه من يحبها عندما يكتب الرسالة لها ثم يكتبها لنفسه على لسانه.

ويذهب الدكتور الجوزو إلى أن «السحاب الأحمر» مجموعة من المقالات التي كتبها الرافعي تم جمعها في هذا الكتاب.

ورغم النقد الذي وجهه إليه إلا أنه أقرَّ بأن أسلوب الرافعي متميز. لقد كانت حياة الرافعي منذ مولده إلى وفاته للعلم والأدب، وكانت معاركه مع العقاد، وطه حسين وعبد الله عفيفي، وغيرهم تهدف إلى المحافظة على أصولنا الثقافية، وتراثنا الخالد، وأدبنا الراقي.

رحم الله الرافعي وأسكنه مساكن الصالحين جزاء ما قدم للغة والأدب والتراث.

عملنا في الكتاب

- إضافة التصدير الذي كتبه الأستاذ /محمد سعيد العريان.
- بيان آراء النقاد في «السحاب الأحمر».
- توضيح أن هذا الكتاب قد يكون النصف الثاني لـ«رسائل الأحزان» رغم أنه كتاب قائم بذاته.

سائلين الله التوفيق فهو نعم المولى ونعم النصير،،

عادل عبد المنعم أبو العباس

تصدير

بقلم

محمد سعيد العريان

(لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر: يا أنا...، ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين - حين يقع - أعنف ما في الخصومة؛ إذ هو تقاتل روحين على تحليل أجزائهما الممتزجة، وأكبر خصيمين في عالم النفس: متحابان تباغضا...).

مصطفى صادق الرافعي

***

... وهذا هو الفصل الثاني من قصة الحب بين الرافعي وفلانة، ليست قصةَ الحادثة، بل قصة القلب الذي أحبَّ فَزَيَّنَ له الحبُّ، فتمنَّى؛ ثم كان من أمره ما كان مما فصَّلتُ مجملَهُ

في غير هذا المكان[1] فجاء هذا الكتابُ وكتابان من قبله ومن بعده[2]، يصف فيها من حاله ومن خبره ويكشف عن ذات نفسه!

كانت «رسائل الأحزان» هي أول ما بين الرافعي وصاحبته بعد القطيعة؛ كتَبها وأنفذها إليها بين دفَّتي كتاب، لتقرأه فتعلم من حاله ومن خبره ما يريد أن تعلم؛ ثم كَتَبَ هذا الكتاب...

تُرى ماذا كتبت إليه صاحبتُه بعدما قرأت «رسائل الأحزان» فأثارت نفسه بعد هَدْأَتها وردَّتْه من الغيظ والحنق إلى أن يقول:

«يا هذه لا أدري ما تقولين؛ ولكن الحقيقة التي أعرفها أن نفس المرأة إذا اتسخت كان كلامها في حاجة إلى أن يُغسَل بالماء والصابون، وهيهات...!» ويقول: «يجب على المدارس حين تعلم الفتاة كيف تتكلم أن تعلِّمها أيضًا كيف تسكت عن بعض كلامها».

مَن لي بأن أعرف ما كان وقْع رسائل الأحزان في نفسها وما ردَّتْ به؟

---

(١) حياة الرافعي ص ٧٣- ١١٩ ط١.

(٢) رسائل الأحزان، وأوراق الورد.

إنه يتحدث في السحاب الأحمر عن التهمة والظنون، والكلام الذي لا يغسله الماءُ والصابون، والنجمةِ الهاوية؛ وخداع النظر في الحب، وفساد الرأي في الهوى، وطيش القلب في الاستسلام، ثم.. ثم يحاول أن يعتذر!

هنا الحلقة المفقودة في تاريخ هذا الحب؛ فلست أدعي المعرفة؛ ولقد كنتُ مع الرافعي مرة في مكتبه وبيننا هذا الكتاب يقرأ لي بعض فصوله؛ فاستمهلتهُ عند فقرةٍ مما يقرأ ليجيبني عن سؤال يكشف عن شيء من خبرها ومن خبره؛ فوضع الكتاب إلى جانبه وحدَّق فيَّ طويلًا، ثم سكت، وسبحت خواطره إلى عالمَ بعيد، وراحت أصابعه تعبث بما على المكتب من أشيائه؛ ثم قال: «أرأيت القلم الذي تراءى لي السحابُ الأحمر في نصابه بين عينيّ والمصباح!» ثم دسّ يده في درج المكتب فأخرجه ودفعه إليَّ وهو يقول: «ضع النصاب بين عينيك والمصباح وانظر، ألستَ ترى سحابًا يترقرق بالدم كأن قلبًا جريحًا ينزف؟ في شعاعة هذا النور تراءتْ لي هذه الخواطر التي تقرؤها في السحاب الأحمر...».

ثم عاد إلى الصمت ولم أعد إلى السؤال..

***

أحسب أن الرافعي حين أنشأ السحاب الأحمر، كان في حالة عصبية قلقة لست أعرف مَأتاها ومَرَدَها؛ ولكن فصول الكتاب تتحدث عن خبرها في شيء من الغموض والإبهام.

لقد أنشأ الرافعي رسائل الأحزان ليكون رسالته إليها يتحدث فيها عن حبه وآلامه، ولست أشك في أن صاحبته حين تأدَّتْ إليه رسائله قد فهمتْ ما يعنيه وعرفتْ ذات صدره؛ وأحسبها - وهي الأديبة الشاعرة - قد سَرّها أن تكون هي فَلَكَ الوحي لما في رسائل الأحزان من كل معنى جميل، أفتراها قد بدا لها أن تهيجه بالدلال والإغراء وقسوة العتب وتصنُّع الغضب لتفتنه وتزيده وحيًا وشعرًا وحكمة؟

إن كان هذا هو جوابها على رسائل الأحزان فما أراها قد بلغتْ به إلا أن هاجتْ كبرياءَه وأثارت نفسَه، فكتب هذا الكتاب ولكن لغير ما أرادتْه وما قصدت إليه.

***

يقوم السحاب الأحمر على سبب واحد، حول فلسفة البغض، وطيش الحب، ولؤم المرأة؛

على أن كل ما فيه لا يشير إلا لمعنى واحد: هو أن قلبًا وقع في أسر الحب يحاول الفَكاك فلا يستطيعه؛ فما يملك

إلا أن يصيح بملء فمه: إنني أُبغضك أيتها.. أيتها المحبوبة!

وكما يفزع الشخص إذا حزَبَه أمرُه إلى أصدقائه يستعينهم ويستلهمهم الرأي في بلواه، كذلك فزع الرافعي في السحاب الأحمر ولكن إلى أصدقاء من غير عالمه يستعينهم على أمره؛ فهذا صديقه الشيخ على صاحب «المساكين»، وهذا صفيُّه وصاحب نشأته الشيخ أحمدْ الرافعي، وذلك أستاذه ومثله العالي في دينه الأستاذ الإمام الشيخ محمد عبده، وهذه أم ضلّ ولداها الحبيبان، وتلك زوج يفارقها زوجها الحبيب إلى السجن، وهذا، وهذه، وتلك، يحدثونه جميعًا حديثهم عن الحب في رأي العين وفي رأي القلب وفي رأي العقل، ويحدثهم حديثه.. فما تلمح من أحاديث هؤلاء جميعًا إلا أن الرافعي في جهاد عنيف بين قلبه وعقله، يريد أن يثبت الغلبةَ لعقله على هواه ليخرج من أمر صاحبته برأيه وفكره وكبريائه، ثم لا تكون الغلبة في النهاية إلا للحب على رأيه وفكره وكبريائه!

على أن هذا الكتاب ليس كله خالصًا لصاحبته «فلانة» وإن يكن من وحيها؛ ذلك لأن نسقه العجيب ومحاولةَ الرافعي به أن ينصرف عنها، قد نَهَجَ له في الكتاب مسالكَ من القول لم تكن مما يقتضيه ما بينه وبين صاحبته.

في الفصل الأول من السحاب الأحمر، يتحدث المؤلف عن فتاة «عرفها قديمًا في ربوة من لبنان، ينتهي الوصفُ إلى جمالها ثم يقف!» وهو يعني صاحبته التي أملث عليه «حديث القمر»؛ وإنك لتقرأ حديثه عنها، ووصْفَه لها، وما كان من أثرها في نفسه، فتسأل نفسك: أيُّ شيء ردَّه إلى هذه الذكرى البعيدة فأيقظها في نفسه بعد اثنتي عشرة سنة محا الزمان بها في قلبه وأثبت؟ فلا تلبث أن تجد الجواب في الأسطر الأخيرة من هذا الفصل:

«إن من النساء ما يُفْهَم ثم يعلو في معانيه الجميلة إلى أن يمتنع، ومن النساء ما يُفْهَم ثم يَسفل في معانيه الخسيسة إلى أن يُبتذل...».

«إن من المرأة ما يُحَبُّ إلى أن يلتحق بالإيمان، ومن المرأة ما يُكْرَه إلى أن يلتحق بالكفر...».

«من المرأة حلو لذيذ يؤكل منه بلا شبع، ومن المرأة مُرّ كريه يُشْبَع منه بلا أكل...».

أتراه بهذا يوازن بين واحدة وواحدة، ليقول لهذه: إن تلك كانت خيرًا منك؟ وهل تحسبه كان يعتقد ذلك؟ أما أنا فأعرف أن هذا معنى لم يكن يعنيه، ولكنها مساومة في

الحب يريد بها أن يهيج غيرة صاحبته ليردها إليه، أو أنه أراد أن ينقذ كبرياءه فيزعم لصاحبته أنه لم يكن يعنيها بما كَتَبَ، لأن هنالك أخرى..

***

وتقرأ «النجمة الهاوية» في الفصل الثاني فتسمعه يقول: «تتم آمالنا حين لا نؤمّل؛ فما تشك أن هناك رسالةً إليها، رسالةً يمليها الحبُّ الغيظ المحنَق، يحاول فيها أن يوهمها أنها ليست شيئًا في نفسه، وأنه قد تمَّتْ آماله واستراحت نفسه فليس لها فيها أمل لا يتعلق بها رجاء، ثم يستطرد في معاني البغض والهجر والقطيعة بأسلوبٍ قاس عنيف، ولكن قلبه العاشق المفتون ينبض في كلماته؛ فما ينتهي الفصل حتى يستعلن حبه من وراء كلمات البغض وهو يقول: «أشأم النساء على نفسها من لا تُحِبَ ولا تُبغِض، وأشأمهن على الناس من إذا عَدَّتْ مبغضيها لا تَعُدُّ إلا الذين أَحبُّوها..!» فهل ترى ترجمة هذه العبارة إلا أنه يقول: «إنني أحبك يا أشأم النساء!».

اقرأ في آخر هذا الفصل الصاخب قولَه:

يا مَن على الحب ينسانا ونذكره لسوف تذكرنا يومًا وننساكا

إن الظلام الذي يجلوك يا قمرٌ له صباح متى تدركه أخفاكا!

***

ويتحدث في الفصل الثالث عن السجين تحمله عربة السجناء إلى أَجلِه وزوجتُه التي تحبه تشيِّعه بنظراتها الجازعة، فتعرف من وصفه لساعة الفراق بين الزوجين الحبيبين آيٌ خاطرة في الحب ألهمتْه هذا الفصلَ البديع، وكأنك تسمعه يتحدث فيه عن نفسه مما فعل به الفراق إذا يتحدث عن هذين الزوجين الذين فرق بينهما الموتُ الموقوت!

***

ويتحدث في الفصلين الرابع والخامس عن تجارة الحب، وعن المنافق؛ فتلمح من وراء حديثه معنى لا يريد أن يفصح عنه؛ وإنه لسبب مما كان بينه وبين صاحبته؛ أفَتُراه يشير به إلى شيء من أسباب القطيعة.

***

وفي الفصل السادس يتحدث عن حب الأم في قصة والدة ضلَّ ولداها الصغيران ثم اهتدت إليهما؛ فيوازن بين حُبَّ وحُب؛ وعاطفة وعاطفة، وينتهي إلى أن يقول:

«وهكذا الرجل: أغواه الشيطان في السماء بثمرة، فنسى

الله حينًا، ويغويه الحب في الأرض بثمرة أخرى، فينسى معها الأم أحيانًا».

وتراه في الفصل الثلاثة الباقية كأنما يحاول أن يروض نفسه على السلوان ويقنعها بأن الحب ليس هو رجولة الرجل، وليس هو إنسانية الإنسان، وليس هو كلَّ ما في الحياة من لذة ومتاع - في كلام يُجريه على ألسنة شيوخه وأصدقائه: الشيخ علي، والشيخ أحمد، والشيخ محمد عبده، يحاورهم ويحاورونه، فتستمع في هذا الحوار إلى النجوى بينه وبين نفسه، وإلى الصراع بين عقله وهواه.

إن الرافعي بكبريائه وخُلقه ودينه واعتدادِه بنفسه لم يُخْلَقَ للحب؛ ولكنه أحب؛ فمن ذلك كان حبه سلسلة من الآلام، وصراعًا دائمًا بين طبيعتِه التي هو بها هو، وفطرتِه التي هو بها إنسان. وإنك لتلمح هذا الصراع الدائم في كل فصل من فصول السحاب الأحمر.

***

وفي هذا الكتاب تقرأ رأي الرافعي في القضاء والقدر، وإنه ليُشعرك برأيه هذا مقدارَ ما فعل به الحب وما فَلَّ من إرادته؛ فتراه يؤمن بأن الإنسان في دنياه ليس له اختيارٌ

فيما يعمل، ولكنه قضاءٌ مقدور عليه منذ الأزل لا طاقة له على الفكاك منه، وإنه على ذلك لموقنٌ بأن لله حكمة فيما قضى وقدَّر وإن دقتْ حكمتُه على الأفهام:

«ألا يا ماء البحر، ما أنت على أرض من الملح؛ فبماذا أصبحت زعاقًا لا تحلو ولا تُساغ ولا تشرَب؛ إنك لستَ على أرض من الملح ولكنك يا ماء البحر ذابتْ فيك الحِكمةُ المِلْحة!».

***

قلت فيما صدَّرتُ به كتاب «رسائل الأحزان»: إنه عند أكثر قراء العربية شيءٌ من البيان المصنوع تَكلفه كاتبُه يحاول به أن يستحدث فنًّا في العربية لم يوفَّق إلى تجويده.. لأنه بقية قصة لم تُنْشَرَ معه.

وأقول هنا: إن السحاب الأحمر كتاب كامل؛ احذفْ منه فصلًا أو فصلين في أوله، وشيئًا من فضول القول في سائره، تجدْ فنًّا في العربية لا يقدر عليه إلا الرافعي؛ فجرِّدْه من قصته أو نسبْه إليها؛ فإنك واجدٌ فيه أدبًا يستحق الخلود، وبيانًا يُزْهَى على البيان، وشعرًا وحكمة ما زال الأدباء يدورون عليهما حتى وجدوهما في أدب الرافعي!

في رسائل الأحزان أراد الرافعي أن تعرف صاحبتُه من حاله ومن خبره ما أراد؛ فأغراها بالترفُّع والدلال؛ وفي السحاب الأحمر حاول أن يشعرها أنه قد فرغ من أمرها وفرغت من أمره، فما لها عنده إلا البغضُ والإهمال، وما له عندها إلا اللهفةُ على ما كان من أيامه، أفتُراه هنا قد بلغ ما أراد؟

هيهات أن يخفي الهوى!

استمع إليه يحاول أن يهيج فيها الغيرة ويبعث اللهفة ويوقظ الحنين ويؤرّث البغضاء ويثير الندم؛ فلا يكاد يبلغ آخر الرسالة حتى ينسى ما قصد إليه ليدع لقلبه أن يقول:

ويلي على متدلِّل ما تنقضي عنه فنونهُ!
كيف السلو وفي فؤا دي لا تفارقني عيونُهُ؟

محمد سعيد العريان

مقدمة الطبعة الأولى

للمؤلف

لما كتبتُ «رسائل الأحزان» في فلسفة الجمال والحب كنت في تدبيره والرأي فيه كمن يؤرِّخُ عَهْدًا من شبابه بعد أن رَقتْ سِنَّه[1] وذهب يقينُه من الدنيا ولم يبق إلا ظنُّه، فهو يكتب والكلامَ يئنُّ لَدَيْه، والقلم يئنُّ في يديه، وكل وصف جاء به من الشباب قال رحمة الله عليه!... وكنت أتعلق بأطراف اللغة التي فرَّت من الحياة معانيها، وذهب نورُها وظلامُها في أيامها ولياليها، فكان قلمي هو الذي يكتبها ولكنَّ قلبي هو الذي يُمْلِيهَا.

لغة الأحلام التي تعبِّرُ عن الحقائق على نحو ما وقعتْ يومًا لا على نحو ما تقع كل يوم، فهي تترجم للحياة في زمن من العمر تاريخَ هذه الحياة نفسها في زمن آخر، وتُرْجع الإنسانَ كله لبقيِّته الباقية، وتأتي في الكلام لغير جِدال كما تأتي الأجوبَةُ القاطعة على أسئلتها.

---

(١) شاخ وهرم، ومتى بلغ الإنسان هذه السن كانت لذات الدنيا كلها ظنونًا في نفسه، وبعد عن يقينها وحقائقها بعده عن شبابه وقواه!

وهي لغةُ الماضي التي تحملُ ما حملْتَ عليها لأنها صافية كالحق، منزَّهة عن الريب كالواقع؛ فإذا وصفتَ بها الخير كانت كالمرآة المجلوة أشرق فيها وجه جميل فملأ صفاءَها جمالًا وفتنة؛ وإذا صوَّرتَ بها الشرَّ كانت كالمرآة ووجه الزنجي: يملؤها سوادًا ولكنه لا يَطْمس على شعاعها، وتضيف إلى سوادِه لمَعَان نورها ما دام فيها!

***

كتبته بلغة الأحلام، والأحلامُ هذه إنما هي بعضُ ما مات منا أو ما مات لنا؛ فإن استحال رجوعنا في هذا العمر عَودًا على الماضي فهي رجوع الماضي إلينا؛ ومن ثَمَّ كان في لغتها شيء ظاهرٌ من رَوْعَة الخلق، وكانت لها معَان كأنها راجعة من سَفَرَ بعيد إلى شوق طال به الصبر.

كتبت كتابة قال الغافلون إني أتكلف لها خَيالًا ورواية؛ وقال العاشقون إنها كلامُ قلوبهم، وقال الذين يفهمون الكلام: إنه هو في كلامه!

ولقد كنتُ من نفسي يومئذ كمن لو ضَربَه الحب بقشِه لجرحه جرحًا يَدْمَي[1] وكنت أكتب عن ساحرة تبسمُ حتى لتظنُّ أنها لم تُؤْتَ وجهًا تعبسُ به، ثم تكون مع ذلك شرَّ ما هي كائنة من حيث لا تظنُّ أنت بها إلا الذي هو خيرٌ وأهْدَى!

---

(١) دمى الجرح يدمي "كرضى يرضي": إذا سال دمه.

وكنتُ في ذلك الكتاب شاعرًا، وحُب الشاعر لا يخلو من الوزن..؛ وكنتُ متفلسفًا؛ وهيهات إن أصبتَ الحب أيها الفيلسوفُ إلا في امرأة معقدَّة يؤلفها الله تأليفًا من العُسْر بين فهمك ومعانيها؛ فلا جرَمَ كان الكتابُ في نوع من الحب المتألم لا يكون مثلُه إلا بين اثنين مَسَحَ اللهُ يده على وجه أحدهما ثم مَسَحَ يده على قلب الآخر ثم تراءَيا بعدُ فما لَبثَ أن أشرق الأثرُ الإلهيُّ على الأثر، ووقع القضاء في الحب على القَدَر!

ألا إن كل باب يُفْتَح ويُغلق بمفتاح واحدٍ هو يُغلقه وهو يفتحه، إلا بابَ القلب الإنساني؛ فقد جعل الله له مفتاحين: أحدهما يُغلقه ثم لا يغلقه سواه، وهو مفتاح اللذات؛ والآخر يفتحه ثم لا يفتحه غيره، وهو الألم!

***

كنت أستوحي «الرسائل» من تلك النفس التي طارت بي طيْرَتَها البطيء وقوُعها، فإني لأسْتَعِرُ بها فكرًا[1] وأَسْتَعِل منها خيالًا، وكنت أرى الفصول تَخْلَص في يدي حين أكتبها كما تخلص سبائك الذهب بعناصرها لا بالصناعة؛ وكان هذا القلم كالحديد إذا أُحْمِيَ عليه: ليست يدٌ لمسته من أيادي المعاني إلا وضع فيها سِمَة النار؛ ثم جاء الكتاب وما أكاد

(1) يستعر: يلتهب، كأنه كله شعلة فكر.

أصدّق أن الزمن مرَّ به، وتم قبل إن يُتِمَّ القمر دوْرَةَ شهر واحد[1]، فنبهني ذلك إلى أن أستوفي الكلام في الحب استمدادًا من أرواح أخرى، فوضعتُ هذا «السحاب الأحمر»[2].

وقد استوحيتُه من أرواحٍ فيها الحبيبُ والبغيض والصديق والمظلوم والظالِمُ لنفسه، ومَن عقله قلبه، ومن حبُّهُ منفعته؛ وفيها أضعفُ ما عرفتُ من العقول وأقواها؛ فمن هذه السماء تَوَكَّفَتُ هذا السحاب[3]، وإني لأشهدُ أني في بعض فصوله كنتُ أحامي عن الحب أن يُنْتَقَصَ[4] فأُدير الكلامَ على ذلك فيلتوي، ثم أراه لا ينقاد ولا يُتَابِعُ إلا على خلاف ما أريد، فإذا أخذت في المذهب الذي يَعِنُّ لي اتفاقًا وعَرَضًا[5] تحدُرَ الكلام تحدُّرَ الدمع من حيث لا يَملك أحدٌ أن يُفيضَه أو يكفه، لأنه عند أسبابه الباطنة وفي فصل «الشيخ علي» خاصَّةً كانت روح هذا الرجل الطبيعي كأنها

---

(١) كتب رسائل الأحزان في نيف وعشرين يومًا، وكتب حديث القمر في أربعين، وكتب هذا السحاب في شهرين، وهي الكتب الثلاثة التي جعلناها للجمال والحب، وكلها مستوحاة.

قلت: ومثلها أوراق الورد، وقد أخرجه بعد هذا الكتاب بست سنين، ولكل كتاب من هذه الكتب الأربعة سبب وحادثة، وقد استوفينا الحديث عن كل منها وعن أسبابها في كتابنا "حياة الرافعي".

(٢) تعرف سبب هذه التسمية في الفصل الأول.

(٣) التوكف: الاستمطار.

(٤) أي يعاب ويثلب.

(٥) عن يعن: إذا عرض.

هي التي تكتب، وكان مَرِيدًا على طبعه وخُلقه[1] فما ملكتُ معه محاماةً ولا دَفعًا، وفي فصل «الشيخ محمد عبده» كنت أشعر كأني مُرْتَقٍ في صَعداءَ مَطْلَبُها طويل بعيدٌ[2]، فلا أخطو خطوة إلا مُدافِعًا جاذبيةَ الأرض وشاعرًا بأني أحمل نفسي حَمْلًا؛ وكنت كالذي يطأ على أضراس الجبل الصخريّ وأسنانِه مُتَّئِدًا حَذِرًا أن يَزِلَّ فيسقط سقوط اللقمة الممضوغة.. ولا ينفعه في الصخر وشُموخه وتعاليه أنه كان في عريض السهل عدَّاءً لا يُلْحق!

***

من الحب رحمةٌ مُهداةٌ؛ فإذا كنتَ مع الله كانت كل أفكارك صورًا روحانية؛ فأنت كالمَلك: هو في الأرض ما هو في السماء، ومن الحب نِقمَةٌ مُسَلطةٌ؛ فإذا كنت مع الشيطان كانت كلُّ أفكارك صورًا حيوانية؛ فأنت كهذا المَتَجَهِّم الطيَّاش[3] الذي لو نظر في كل مرائي الدنيا ما رأى في جميعها غيرَ وجه القرد، لأنه القرد!

والناس في هذا الحب أصناف: فواحد يجاهد زَلَّاتٍ قد وقعتْ، وهو المحب الآثِم، وآخر يجاهد شهواتٍ تَهُمُّ أن تقع، وهو المحب الممتَحَن؛ وثالث أمِنَ هذه وهذه وإنما يجاهد

---

(١) المريد: هو من عتا وطغى، ولا يقال إلا في الأخلاق والطباع، أما في غيرها فمارد.

(٢) الصعداء، الطريق العالية يصعد فيها، أو الغاية البعيدة يصعد إليها.

(٣) القبيح الوجه، الخفيف العقل.

خَطَرَاتِ الفكر، وهو المحب لِيُحبَّ فقط؛ ورابع كالقرابة والصديق: عجز الناس أن يجدوا في لغاتهم لفظًا يلبس هذه العاطفة فيهم فألحقوها بأدنى الأشياء إليها في المعنى، وهو الحب، وعلى الثالث وحده بنيتُ «رسائل الأحزان» وعلى بعض الرأي في الباقيات كَسَرْتُ هذا الكتاب.

مَنْ للمحبِّ ومن يُعِينُهْ ... والحبُّ أهنأه حَزِينُهْ!
أنا ما عرفتُ سوى قسا ... وته فقولوا كيف لِينُهْ؟
إن يُقضَ دَيْنُ ذَوِي الهوى ... فأنا الذي بَقِيَتْ دُيُونُهْ
قلبي هو الذهبُ الكري ... ـمُ فلا يُفارِقُه رنِينهْ
قلبي هو الألماسُ: يُعْـ ... ـرَفُ من أشعَّتِهِ ثمينُهْ
قلبي يُحِب وإنما ... أخلاقه فيه ودِينُهْ

***

يا من يُحِب حبيبهُ ... وبظنِّه أمسى يُهِينُهْ
وتَعِفَّ منه ظواهرٌ ... لكنه نَجِسٌ يقِينُه
كالقَبر غطَّته الزهو ... رُ وتحته عفِنٌ دَفِينُه
ماذا يكونُ هواكَ لو ... كلُّ الذي تهوَى يكونُه
دعْ في ظنوك مَوْضِعًا ... إن الحبيب له ظنونُه

وخـــذِ الـجـمـيـلَ لـكـي تـزِ ... ـيـنَ الـحـسـنَ فـيـه بـمـا يـزيـنُـه
إن تَـنـقَـلِـب لِـصَّ الـعَـفَـا ... فِ لمن تحِب فَمَنْ أمِينُه؟
مـا لـــذةُ الـقـلـب الـمـدَلَّـــ ... ـهِ لا يـطـولُ بـه حَـنـيـنُـه؟
مـا لـــذة الـعـقـل الـمُـحـــ ... ـبِ ولـم يُـجَـنِّـنْـه جـنـونُـه
الـحـب سَـــجْـدَة عـابِـدٍ: ... مـا أرضُـــهُ إلا جَـبـيـنُـه
الـــحـــب أُفْـــــق طـاهـرٌ ... مـا إن يُـدَنِّـسُـه خَـئُـونُـه
أفُـــقُ الـمـلائِـكِ نـفـسُـهُ ... فـي الـبَـدْءِ كـانَ لـه لَعينه[1]

***

وَيـلـي عـلـى مَـتـدلِّـلٍ ... مـا تَـنـقـضـي عـنـي فـنـونـه
كـيـف الـسُّـلُـوُّ وفـي فـؤا ... دي لا تُـفـارقـنـي عُـيـونُـه؟

مصطفى صادق الرافعي

---

(١) هو إبليس لعين السماء وطريد الملائكة.

كانت دُرَّتان متجاورتين في حلية على صدر حسناء؛ وكلتاهما يتيمة إلا من أختها[1]، تَمُجُّ ذلك الشعاعَ النادر الذي جاءه الحسن من كونه ضوءًا لم يُولَد من شمس ولا من قمر، ولكن من ظُلمات البحر؛ فتناجَتا يومًا، وكانت الجميلة قد استوفت كلَّ زينتها وحملت الدرَّتين على صدرها كأنهما عَيْنًا قلبها الثمين؛ فقالت إحداهما للأخرى وهي تشير إلى هذه الفتَّانة: انظري انظري، ما أحسَنَ لؤلؤتنا...!

صارت اللؤلؤة في هذا المنطق الشعريِّ هي امرأةَ الأعماقِ المظلمة، وعادت المرأةُ الحسناء لؤلؤةَ الأعماقِ السماوية المضيئة؛ فلا شيء يريد أن يكون كما هو في نفسه، إذ لا يزال موضعُ الفَصْلِ من حكمة الله خفيًّا، لا يُرى بل يُتَوَهَّم، ولا يُستيقَن بل يُظن؛ وكان خفاءُ هذه الحكمة في سماواتها

---

(١) أي لا يشبهها في الدر إلا أختها.

إيجادًا للخيال في الإنسان حتى لا يظلَّ أبدًا في حيوانيته؛ ولكن هذا الخيال نفسَه كثيرًا ما أضاف إلى الإنسان حيوانيةً أخرى.

ولو كشِفَ لك عن الحقيقة لرأيتَ أقبحَ ما في كل شيء أن لا يبرحَ أبدًا محبوسًا في حقيقة لا يُجاوِزها؛ ومن ثمَّ خفف الله عن الإنسانِ فأودع فيه قوة التخيل يستريح إليها من الحقائق؛ فإذا ضجر أهلُ الخيال من الخيال، لم يُصلحهم إلا الحب، فهو وحده ناموس التطورِ للقوة المتخيلة، ولن تجد في الأشياء العجيبة أعجبَ منه، حتى كأنه أم تلدِ؛ فالمرأة هي تلد الإنسان ولكن حبها يلد النابغة.

***

وليس يقع التعجب من الأمر لأنه عجيب في نفسه، بل لأنه متصل من الإنسان برُوعه[1] أو بعقله أو بهواه أو بمطامعه، فإن دَهِش الرُّوع أو تحيَّرَ العقل أو اشتهى الهوى أو تمكن المَطْمع من النفس، فهذه هي الألوان الأربعة التي تصور منها الطبيعة الإنسانية كلَّ معاني التعجب؛ والذي هو أعجب من جميعها أن الطبيعة لا تحتاج إلى جميعها في

(١) الروع: الخاطر والقلب.

تصوير شيء إلا واحدًا، هو تصوير الحب الصحيح في قلب إنسان.

فهذا الحب ليس حقيقة واحدة عجيبة، بل هو أربع حقائق داخلَ بعضها بعضًا فلا يتميَّز لونٌ منها من لون منها، وما حقيقةُ الحب الصحيح إلا امتزاج نفسين بكل ما فيهما من الحقائق، حتى قال بعضهم: لا يصح الحب بين اثنين إلا إذا أمكن لأحدهما أن يقول للآخر: يا أنا(١)، ومن هذه الناحية كان البغض بين الحبيبين - حين يقع - أعنفَ ما في الخصومة؛ إذ هو تقاتُلُ روحين في تحليل أجزائهما الممتزجة، وأكبرُ خَصيمينْ في عالم النفس، مُتَحابَّان تَبَاغضًا!

وللحب العجيب جنسٌ من النساء عجيب، خُلِقْنَ جواسيس على القلوب يدخلن فيها ويخرجن منها، وقلَّما تجسَّست الواحدة منهن إلا لتفضح للدنيا أسرارَ روحٍ عظيمة؛ وهذا الجنس تُهَيِّئُهُ الطبيعةُ تهيئة المادةِ السحرية، وتولد المرأة منه مرتين، فإذا هي انحدرت إلى الدنيا طفلةً جعلتْ تاخذ في دمها الجذَّاب من شعاع الشمس يتوَهَّج، ومن نور

(١) يريد اتحادهما في الميل والهوى والحياة والخضوع، كأنهما تبادلا نفسيهما فنفس كل منهما انتقلت في الآخر.

القمر يتندى[1]، وذهبت تنمو في ظاهرها نموًّا وفي باطنها نموًّا غيره، حتى إذا بلغت مَبلَغها وانبعثت مِلْءَ شَبابها، آنَ لها أن تُولَدَ الثانيةَ، فوُلِدَت في قلب رجل!

والعجيب أنها في الولادة الأولى يكون أولُ وجودها هو أولَ وجودها؛ أما في الثانية فذلك أولُ فَنَائها؛ لأن المرأة متى حلتْ من قلب الرجل محلًّا، جعل يُفنيها معنى في معنى حتى تفرغ، فلا يبقى منها إلا ذكرى زمن مضى!

وكل امرأة من هذا الجنس هي مُعْجِزَةٌ عقلية ما دامت مخبوءةً في الشعاع السماوي من جمالها، وما دام هذا الشعاعُ يفعل فعلَه الذي عرفه الناس أوضحَ ما عرفوه في أديانهم وعقائدهم وفيما أنزلوه منزلةَ الأديان والعقائد.

وآية مِصداقِ هذا الإعجاز[2] في المرأة الساحرة المحبوبة ذلك النوعَ من الحب، أنه بيْنَا يكون مُحبُّها رَزِيْنَ الطبعِ وازِنَ الرأي[3] كالجبل الراسخ الوَطْأَة، إذا هو من سخافة رأيه في بعض أهواء الحب ونَزَعاته كأنه جبلٌ يطير بألف جَناح وقد ملأ الخوافقَ بين السماء والأرض أوهامًا سحرية!

---

(١) يترطب، والتوهج: توقد النار ونحوها.

(٢) أي برهانه، تقول: مصداق الأمر كذا، وآية مصداقه كذا.

(٣) عاقل وقور راجح الفكر.

وهنا مُعضِلة الحب التي لا حيلة في فهمها ولا في تقريبها إلى الفهم، وهي تثبت أن العاشق يُعطَي في ناحية خياله قِبَلَ الناس جميعًا؛ ولكنه يُنتَقَصُ من ناحية عقله مع حبيبته وحدها، فهما سِحْرَانَ تَظاهرَا[1].

ولا يُشْبِه تلك المعجزة إلا أن ترى إنسانًا يقوم على ساحل البحر المِلْح فيلقي فيه رِطْلًا سكَّرًا، ثم يتذوَّقَ البحر فإذا هو في مذاقه وفي رأيه وفي حكمه شرابٌ سائِغ، كأنما ألقى الرجلُ فيه وزن كرة الأرض من هذا الطعم اللذيذ الحلو.. ومع ذلك فهو عاقل فيما عدا ذلك!

(١) أي تعاونا.